مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً

العدد الثانى

1985

- من قضايا الفكر والعقيدة
- مذاهب بلا إسلام
- معارف إسلامية
- مخطوطات ليبية
- دور الفكر الواقعى فى النهضة الإسلامية

القـــــرآن واللغـــة العـــربيـــة

• الدكتور ابراهيم ارفيدة •

١) نزول القرآن بلغة العرب :

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب وأساليبها فى الخطاب ، فكان فيه ما فى هذه اللغة من الظواهر اللغوية التى بلغ بها نهاية البلاغة ومرتبة الاعجاز وفى مقدمة هذه الظواهر ، ظاهرة الاعراب التى هى الخصيصة الأولى لهـذه اللغة ، ومنهـا الحقيقة والمجاز والذكر والحذف والتقديم والتأخير ، والاظهار والاضمار ، والايجاز والاطناب ، والتفصيل والاجمال ، الى غيرها من الظواهر والأساليب مما يستدعى الدراسة والتعلم والتعليم حتى يستطيع المسلم أن يفهم كتاب ربه وأن يتذوق أسراره البلاغية واعجازه البيانى وسموه الروحى ليكون ايمانه قويا حيا عن دليل ونظر وليكون قادرا على العطاء الحق وتبليغ دعوة الاسلام ونشر مبادئه الخالدة .

وقد أكد القرآن نفسه حقيقة عروبته من هذه الناحية وألحَّ عليها فى أكثر من آية ، منها : قوله تعالى : (إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (١) وقوله : (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربىٍ مبين) (٢) وقوله : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثلٍ لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) (٣) وقوله (إنا جعلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون) . (٤)

ومع تأكيد القرآن هذه الحقيقة ، نفى أن يكون فيه لسان غير عربى فى آيتين من آياته هما : قوله تعالى : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) (٥) وقوله : و لو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، ءأعجمي وعربى) (٦) ويقول الامام الشافعى : (فأقام ـ الله سبحانه وتعالى ـ حجته بأن كتابه عربى فى كل آية ذكرناها ثم أكد ذلك بأن نفى عنه كل لسان غير لسان العرب) . (٧)

فالقرآن الكريم لم يخرج عن مألوف العرب فى لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة ، فمن حروفهم تألفت كلماته ومن كلماتهم ركبت جمله . وعلى قواعدهم العامة فى صياغة المفردات وتكوين الجمل والأساليب جاء تأليفه وأحكم نظمه فكان عربيا جاريا على أساليب العرب وبلاغتهم ، ولكنه ـ على رغم ذلك كله ومع سلوكه مسالكهم فى التعبير قد أعجزهم بأسلوبه الفذ المتميز ونظمه البيانى المسيطر المقسم بالانسجام الصوتى فى كلماته المفردة وحروفها وحركاتها وفى جمله المركبة ـ موصولة ومفصولة ـ وفى أساليبه المتنوعة وبخطابه للعقل والعاطفة وهيمنته عليهما وتأثيره فى الخاصة والعامة وهو سر اعجازه البيانى ونفوذه الروحى الى جانب إخباره بالغيوب ، ومعانيه الصادقة السامية وأحكامه الدقيقة العادلة الصالحة للتطبيق ، وموازينه التى لا تختل ولا تتناقض باختلاف الأزمنة وتناقض الأحوال والملابسات ، وهو الكتاب الوحيد فى الدنيا الذى يتحدى مؤلفه ومنزله ـ جل شأنه ـ البشر كافه ـ منذ إنزاله ـ أن يأتوا بمثله فلا يستطيعوا أن يقابلوا التحدى بمثله ـ على رغم إصرار الكثير منهم ـ على الكفرية ومعارضته ، فيكون كما قال الله فيه :

(وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) (٨)

ويجب أن يلاحظ أن القرآن لم يعبر بكلمة (لغة) وان جاءت مادتها فيه ، وانما عبر بـ (اللسان) ـ بمعنى (اللغة) وجمعه : (الألسنة) . (٩)

٢) العربية تنتشر بالقرآن وتصبح لغة عالمية مقدسة :

اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم بها كان أهلها العرب يتكلمون بها فى شبه جزيرتهم بالسليقة والسجية فصيحة معربة سليمة من اللحن والاختلال ، وكان يتكلم بها معهم من عاش بينهم واستقر فى ربوعهم فألف حياتهم ورضى تقاليدهم من الأفراد والجاليات ، ولكنها لم تكن منتشرة خارج شبه الجزيرة ولم تتكلم بها شعوب أخرى فى أوطانها ، ولم تكن لها قواعد نحوية مدونة ولا بلاغية ولا غيرهما ، فلم يكن أصحابها المتكلمون بها يعتمدون على شىء من ذلك وانما كانوا ينشأون عليها ويألفون التكلم بها صحيحة معربة بالسليقية والوراثة والعادة المستمرة ، فلم يعرفوا النحو المدون ولا غيره من علوم العربية التى لم تدعهم الحاجة إليها فى الجاهلية ، حتى ظهر نور الاسلام ونزل بها القرآن ، فخرج العرب من شبه جزيرتهم داعين الى الله مبشرين بدينه حاملين كتابه بلسان عربى مبين ، فانتشرت العربية بانتشاره وقضت (١٠) على كل اللغات التى احتكت بها فى الشعوب التى دخلت فى الاسلام ، فأصبح دينها الاسلام ، ولغتها القرآن ، وتوحد المسلمون فى اللغة كما توحدوا فى الدين ، وكانت اللغة تعبيرا عن وحدة العقيدة والشريعة والفكر والثقافة والمشاعر والاحاسيس وشاهد ذلك ما نعلمه من تاريخ الاسلام والمسلمين وأئمة العلم والفكر فى جميع الشعوب الاسلامية وما كتبوا بها وتركوه

لنا من تراث قيم غزير ومكتبات حافلة بملايين المجلدات وأصناف المعارف الانسانية والعلمية بهذه اللغة القرآنية ومما لاشك فيه ، أن عدد العلماء غير العرب أكبر وأكثر بكثير من العلماء العرب ممن كتبوا بها من الفريقين ، وبذلك أصبحت العربية عالمية مقدسة (١١) منتشرة فى كثير من أقطار الأرض لأنها لغة القرآن الكريم ولغة النبى العظيم الذى أنزل عليه هذا القرآن ، لغة الدين الحق الذى يؤمن به مئات الملايين من الناس خارج وطنها الأصلى ، ويغارون عليها ويفضلونها على لغاتهم الأولى ويرونها أفضل اللغات وأحقها بالحياة والتعبير عن شئونها (١٢) وانها أقوى وسائل الترابط والوحدة بين العرب أنفسهم وبينهم وبين المسلمين الذين يتكلمون بها فى البلاد الاسلامية ، وهى فى الحق أقوى من رابطة النسب والدم لأن الدم لا يمكن استصفاؤه بسبب التصاهر والتزاوج والاختلاط والاستباحة فى الحروب فى كثير من الاحيان ، والعربية بما تحمله من رسالة هذا الدين وكتابه هى أساس العلاقات الحضارية والثقافية والاجتماعية بين العرب والمسلمين بها تتوحد أساليب التفكر والتعبير ، ويمكن التفاهم والتعاون على البر والتقوى ونصرة الاسلام واثراء حضارته وأداء عباداته ، وهى ـ بتراثها الاسلامى ـ الحصن الذى يحول دون احتلال عقول ابنائها ـ ابناء العرب والمسلمين ـ بلغات أخرى وآراء وافدة . (١٣) وتلك من بعض حكمة الله الذى أرسل كل رسول بلسان قومه ولغة أمته التى بعث اليها لدعوتها الى الله باللسان الذى تفهم به ، وليكون لبيان الرسول الدين الذى جاء به أثر وتأثير ، قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) . (١٤) ولكنه سبحانه جعل رسالة نبيه محمد النبى العربى صلى الله عليه وسلم خاتمة عامة ، قال تعالى : (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا اله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الامىّ الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) . (١٥) فيجب على جميع الناس والأمم ـ الى قيام الساعة ـ الايمان به واتباعه ، ولا يكون ذلك الا بمعرفته عليه السلام ومعرفة دينه ، ولا يكمل الا بتلاوة شىء من الكتاب العربى الذى أنزل عليه ، مما يجعل دينا وعقلا ـ لغته لغة أتباعه وهم أمته : أمة الاستجابة ، والعروبة ليست بالنسب والدم فقط وانما من تكلم العربية فهو عربى اللسان والثقافة والانتماء ، وقد كان العرب يقولون : إن كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهو عربى ، (١٦) ولذلك استطاعت العربية أن تجمع تحت رايتها أمما وأنسابا وأعراقا ودماء شتى ممن يدينون بالاسلام أو ينتسبون الى العرب ، ومن ذلك كله نرى أن تاريخ اللغة العربية ارتبط بالقرآن منذ نزوله ، والاسلام منذ بزوغ نوره ، فكان لها بهما شأن عظيم وتاريخ حافل مجيد وانتشار واسع ـ على رغم فشو اللحن فيها وتعرضها للاختلال وفساد النطق بها ـ كما كان لها بهما تراث خالد غزير ، مما سنرى موجزه واشارة له فى الفقرات المقبلة .

٣) ارتباط علوم العربية بالقرآن أصلا وتاريخا :

بعد أن انتشر العرب فى الاقطار التى دخلها الاسلام خصوصاً فى الشام والعراق

وبلاد الفرس وانتهت عزلتهم بلغتهم فى شبه جزيرتهم ، شاركهم فى التكلم بها شعوب أخرى مسلمة ، واختلط العرب بها اختلاطا واسعا اذ أصبحوا اخوة فى الدين ، يتلون كتابا واحدا بلسان عربى مبين ومجتمعها مسلما متعاوناً فى السراء والضراء ، بعد هذا أخذ اللحن فى اعراب العربية وفساد النطق بكلماتها وأساليبها يفشوان فيها ويهددانها بالاضمحلال والاندثار ، لاسيما الاعراب الذى سرى اللحن فيه قبل غيره من خصائص العربية وظواهرها اللغوية لدقته وانفراد العربية به وصعوبة المحافظة عليه ، ونماذج اللحن التى روى أنها كانت سببا فى وضع النحو كثيرة وأكثرها شهرة ودورانا فى الروايات ما كان لحنا فى آية من كتاب الله تعالى . (١٧) حينئذ غار العرب على لغتهم وخافوا عليها وفزعوا من فشو اللحن فيها وانحراف الألسنة بها وتكسرها ، فأخذ الغير منهم يفكرون فى وسيلة يحفظونها بها وتكون بديلا من سليقتهم التى فسدت باللحن وابتلت بفساد النطق ، فهدى الله أبا الأسود الدؤلى الكنانى المتوفى سنة (٦٩هـ - ٦٨٨ م) الى ابتكار علم النحو - وهو علم الاعراب الذى كان أول علوم العربية نشأة وظهورا للوجود ، وهو العلم الذى اعتبر عوضا من السليقة الذاهبة ومنهجا للنطق الصحيح والتعبير الفصيح ، وقد استنبطه ائمه العربية المتقدمون من استقراء كلام العرب الفصحاء فى عصر الاستشهاد : العصر الجاهلى والقرنين الأولين للاسلام . (١٨) وأرادوا به أن ينحو المتكلم اذا ما تعلمه سَمْتَ العرب فى كلامهم وطرائقهم فى أساليب خطابهم ، ويشمل النحو فى مفهومه العام علم الصرف الذى تعرف به صياغة الكلمات العربية القياسية وأحوالها وما يعرض لها مما ليس بإعراب ولا بناء ، إذ الاعراب والبناء هما الموضوع الأصلى لعلم النحو بمعناه الخاص .

والنحو بمعناه العام يحوى أصولا وقواعد مستنبطة ومأخوذة من كلام العرب الفصحاء يعرف بها أحكام الكلمات العربية وكيفية النطق بها نطقا صحيحا فى حال افرادها - كظاهرة اعلال الكلمة وادغام بعض حروفها فى بعض ، وحذف بعض حروفها وابدالها وتثنيتها وجمعها ، وغيرها من الاحكام التى تتعلق بالكلمة المفردة - وفى حال تركيبها مثل ظاهرة إعراب الكلمة أو بنائها ، وما يتبعها من شروط نحو النواسخ وحذف العائد وكسر همزة (إن) وفتحها - وتخفيف النون منها وغيرها من الاحكام والظواهر التى تتعلق بالكلام المركب وتجعله موافقا لكلام العرب ونطقهم المستقيم البليغ .

فموضوع علم النحو - فى مدلوله العام - أوسع من الاعراب والبناء ، فهو هندسة شاملة للكلمة والكلام العربى المركب ، ومنهج للنطق السليم ، والتعبير البليغ ، ويقول ابن جنى فى تعريف النحو بهذا المعنى العام : (هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من اعراب وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والاضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة فينطق بها وان لم يكن منهم ، وان شذ بعضهم عنها رد اليها .(١٩)

ومن أجل ذلك لا يكون الكلام العربى مستقيما بليغا عالى البلاغة الا بالالتزام الكامل لقواعده وما حدده من مقاييس وأوضاع لتأليف الكلام وسلامة التعبير ، كما قرر الامام عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغيين الذى أقام نظرية النظم لاعجاز القرآن الكريم على

معانى النحو وأصوله وقواعده ، ومن قوله فى ذلك : (فلا ترى كلا ما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه الا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الى معانى النحو وأحكامه ووجدته يدخل ويتصل بباب من أبوابه (٢٠) وقوله أيضا : (اعلم أن ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو تعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشىء منها .(٢١)

والنظم هو الأسلوب وأداء الكلام والصياغة النحوية للتعبير ، وفيه يكمن سر إعجاز القرآن الكريم البيانى .

وقد توسع الامام عبد القاهر الجرجانى فى الاشادة بالنحو وبيان وظيفته ومعناه ومجمل أصوله فى كتابه القيم (دلائل الاعجاز) وجعل الصاد عنه كالصاد عن القرآن الكريم لأن النحو هو الوسيلة الأولى لتلاوته تلاوة صحيحة عند تلقيه ولفهمه وتحليل أساليبه وبيان آدابه وأحكامه ، اذ بالنحو تحلل الأساليب ويفرق بين المعانى وتعرف وظيفة الكلمة فى الجملة ودورها فى أداء المعنى ، ويطلق على (النحو والصرف) - (علم العربية) بالغلبة ، لسبقهما فى النشأة وللحاجة اليهما قبل غيرهما فى صياغة الكلم ومعرفة المعانى ، وهما مبنيان على (علم اللغة) الذى عده علماؤنا القدامى من علوم العربية ، ويبحث فيه عن الالفاظ المفردة المسموعة من العرب الموضوعة من قبلهم من حيث دلالتها على معانيها بالمطابقة دلالة حقيقية ، وهو ما اهتم به الرواة الذين جمعوا اللغة ، واللغويون الذين سجلوا فى معاجمهم الكلمات العربية المروية وضبطوا صيغها وبينوا معانيها وحقائقها ونفوا الدخيل عنها ، وميزوا بين الاستعمال الحقيقى والمجازى فيها ، وذلك لأن أكثر ألفاظ اللغة يعتمد فى معرفته على السماع وينقل نقلا للاستعمال ولهذا يعرف علماؤنا اللغويون اللغة العربية بقولهم : (هى عبارة عما حفظ من كلام العرب ونقل عنهم من الالفاظ الدالة على المعانى) . (٢٢)

وهذه الثلاثه - علم اللغة ، النحو ، الصرف - هى العلوم اللغوية ، والتى لا يستشهد لها ولا تبنى الا من كلام العرب الفصحاء قبل نشوء اللحن وانتشاره ، والتى بنشأتها كانت نشأة العلوم العربية الأخرى ، مثل علوم البلاغة - المعانى ، البيان ، البديع ، وقد نشأت هذه من البحث فى اعجاز القرآن الكريم ، وأسرار الكلام الفصيح ، وسمات التعبير الجميل ، لاستنباط مقاييس الفصاحة وتحديد معايير البلاغة وقوانين الكلام البليغ ومقتضيات الأحوال له . (٢٣) وهى موضوعها ، وهذه الستة هى علوم العربية الرئيسية والفضل الأول فى نشأتها ونموها واستمرارها يرجع الى القرآن الكريم وحرص المسلمين الشديد على المحافظة عليه ، والدفاع عنه ، وبيان اعجازه ، لرد مزاعم الملحدين فيه ، اذ أن أشد ما أفزع العرب من انتشار اللحن فى العربية هو اللحن فيه ، فهبوا لتقنين العربية وتقعيدها ، بابتكار النحو لدرء الخطر عنه وتعليم الناس الداخلين فى الاسلام العربية مقعدة مبوبة حتى لا يلحنوا فيه ويخطئوا فى قراءته الى جانب تحفيظهم اياه كما أنزله رب العزة بالرواية الموصولة والسند الثابت ، ثم كان ابتكار نقط الاعراب الذى تطور الى الشكل المعروف : الفتحة والكسرة والضمة وعلامة السكون كان ابتكار هذا النقط خطوة مهمة فى اتضاح معنى النحو ونشأة علم الضبط والرسم وقد قام

بابتكاره أبو الأسود الدؤلى أيضا ، بالتطبيق على كلمات القران الكريم ولضبط النطق له بالقلم ، وقد كان المصحف قبله خاليا من النقط والشكل .

ومن هذه الاشارات الموجزة يتضح لنا ارتباط علوم العربية بالقرآن أصولا وموضوعا وتاريخا ، فهى فى أصولها مأخوذة ومستقاة من الكلام الفصيح وليس هناك كلام عربى أفصح من القرآن الكريم ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك ، ويتلوه كلام العرب فى عصر الاستشهاد اللغوى سواء أكان نثرا أم شعرا .

وتاريخ هذه العلوم يدل على أنها نشأت فى رحابه وبوحى منه ولخدمته وخدمة المسلمين المؤمنين به ولدفع اللحن عنه وعن لغته : لغة العرب ، ولبيان اعجازه الدال على صدق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولدفع الشبه عنه من المشككين والملحدين فيه ، ويتضح ذلك من قول ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فى مقدمة كتابه : (تأويل مشكل القرآن) قال : وقد اعترض كتاب الله ملحدون ، ولغوا فيه وهجروا » واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء تأويله « بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخول فحرفوا الكلام عن مواضعه وعدلوه عن سبيله ، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف ، وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر والحدث الغر واعترضت بالشبه فى القلوب وقد حت بالشكوك فى الصدور فأحببت أن أنضح عن كتاب الله وأرمى من ورائه بالحجج النيرة والبراهين البينة وأكشف للناس ما يلبسون فألفت هذا الكتاب جامعا لتأويل مشكل القرآن . (٢٤)

وأما العلوم الاسلامية الأخرى فإنها أوضح ارتباطاً بالقرآن الكريم وأكثر التصاقا به ولولاه ما كانت ولا كان لها مصدر ولا موضوع مثل (علم القراءات) و(علم التفسير) (وعلم الفقه) و(علم الأصول) ، ثم ان هذه العلوم كلها إنما عاشت ونمت فى العالم الاسلامى كله بفضل المعجزة الخالدة القرآن الكريم ، وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فهما المصدران الأساسيان والمبدعان للحضارة الاسلامية بأكملها ، وما كان الفكر الاسلامى الا بوحى منهما وبناء على أصولهما وما الحديث الا بيان للكتاب وخادم له ومتمم لما دل عليه ، قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) . (25)

واللغة العربية هى مفتاح فهمها وآلة المحافظة على فصاحتهما ووسيلة نشرهما ، ولذلك اعتبر علماء الاسلام والعربية خدمة اللغة العربية والتأليف فيها خدمة لكتاب الله الكريم والحديث النبوى الشريف ، والذود عنها ذودا عنهما ، فكانت لغة علماء المسلمين ودعاتهم فى مختلف الأقطار والأزمان ، منذ نزل بها القرآن وأصبحت لغته ـ كما سبق التنويه ـ وما قدمه العلماء المسلمون من غير العرب يفوق بأضعاف ما قدمه العلماء العرب لها من خدمات ، فالاولون أكثر عددا وتآليف ، واعظم جهاد فى نشرها والدفاع عنها ، ويكفى هنا أن نذكر أن أعظم كتاب فى النحو العربى هو كتاب سيبوية الفارسى ، وأن من أعظم كتب العربية وفقهها (الخصائص) لأبى الفتح عثمان بن جنى الرومى اليونانى ، وأن أشهر كتب اعجاز القرآن وأفضلها مؤلفوها من غير العرب نذكر منهم :

أحمد بن محمد أبا سليمان الخطابى البستى الافغانى (ت ٣٨٨هـ) وأبا بكر محمد بن الطيب الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) . وعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) وغيرهم كثير كثرة غامرة فى مختلف الدراسات القرآنية وفروع العربية وآدابها . (26)

٤) اشتراط العلم الواسع بالعربية وأساليبها وعلومها لمن يريد تفسير القرآن الكريم :

ترتبط اللغة العربية بالقرآن الكريم من ناحية أخرى فى الفكر الاسلامى ، هى اشتراط علماء الاسلام على من يريد تفسير القرآن أن يكون عالما واسع العلم بالعربية وعلوم الاسلام التى هى علوم القرآن لاستنباطها منه ونشأتها فى رحابه واستمرار الحياة لها بحفظه ، وقد بلغ ما اشترطوا معرفته لصحة التفسير العقلى أربعة عشر علما ، فى مقدمتها علوم العربية التى سبق ذكرها والاشارة الى بعض موضوعاتها ووظائفها ، اذ لكل علم منها وظيفته فى تحليل االنص القرآنى والقدرة على فهمه وان تفاوتت فى الأهمية والاعتبار . (27)

فاللغة أو علم اللغة ـ مثلا ـ كما كان يفهمه الأقدمون ونحتاج اليه فى فهم النصوص ـ يعرف به معانى الكلمات المفردة وتشرح مدلولات الالفاظ بحسب وضع العرب لها ، ومرجعنا فيه الى المعاجم العربية ، مثل (تهذيب اللغة) لأبى منصور الأزهرى (ت ٣٧٠ هـ) و (لسان العرب) لابن منظور الانصارى (ت ٧١١ هـ) والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروز أبادى (ت ٨١٧ هـ) وغيرها من المعجمات القديمة والحديثة ، على أن حفظ النصوص الفصيحة ـ شعرا ونثرا ـ والاطلاع على الأدب البليغ ، هو الذى يعطينا رصيدا لغويا طيبا وحساً أدبيا مرهفا ويقدرنا على التعبير الصحيح ويكسبنا الفقاهة فى اللغة وآدابها ، وفى المقدمة من ذلك حفظ القرآن بفهم ووعى لأساليبه ومعانيه ، وعلوم العربية التى سميناها تزودنا بالقواعد التى نقرأ بها وتعيننا على القراءة الصحيحة وفهم الكلمات والأساليب وأسرار التعبير ، والتفريق بين المعانى ـ ثم تحليل النصوص وتفسيرها وعدم الزيغ فى تأويلها .

واذا ما انفصلت علوم العربية عن النصوص الفصيحة والأدب البليغ جفت وجمدت وأصبح متعلمها لا يستطيع التعبير الصحيح ، كما حصل لهذه العلوم وأهلها فى فترات من تاريخنا الاسلامى .

فالعلم بالعربية وعلومها شرط أساسى من شروط التفسير العقلى المقبول لان القرآن كتاب عربى معجز يصعب أو يستحيل فهمه على من يجهل لغته ، وسمو بلاغته ، ولا يصح منه تفسيره ، وأقوال العلماء فى ذلك كثيرة ، منها : قول التابعى الكبير مجاهد بن جبر المكى (ت ١٠٤ هـ) (لايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله

اذا لم يكن عالما بلغات العرب) [28] وأثر عن الامام مالك قوله : (لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغات العرب الا جعلته نكالا) . [29]

ونقل السيوطى فى الاتقان عن الامام أبى طالب الطبرى نصا طويلا فى شرائط التفسير وما يجب على المفسر لكتاب الله من صحة الاعتقاد ولزوم منهج الدين والزهد فى الدنيا ، والابتعاد عن الشبهات وكان ختام هذا النص قوله : (وتمام هذه الشرائط أن يكون - المفسر - ممتلئا من عدة الاعراب لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام فانه اذا خرج بالبيان عن وضع اللسان ، اما حقيقة أو مجازا فتأويله تعطيله) . [30]

وسئل الحسن البصرى - وهو التابعى الكبير - عن الرجل بتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته ، قال : (حسن فتعلمها فان الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها) [31] أى يعجز عن فهمها فيضل فى تفسيرها ويشقى بتحريف المراد منها ويهلك .

وأما الامام الشافعى فقد تناول فى الرسالة معنى عروبة القرآن ونزوله بلسان عربى مبين وبين أنه فعل ذلك نصحا لله وللمسلمين حتى يستعدوا بهذا اللسان لتلاوته وفهمه ، وتفسير أوجه البيان فيه ، وكان من قوله : (وانما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمه انتفت عنه الشبه التى دخلت على من جهل لسانها) [32] وقوله :(وما ازداد من العلم باللسان الذى جعله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرا له كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ويأتى البيت وما أمر باتيانه ويتوجه لما وجه له ويكون تبعا فيما افترض عليه وندب اليه لا متبوعا) . [33] وقد علق العلامة الأستاذ أحمد محمد شاكر على كلام الشافعى هذا بقوله : (هذا معنى سياسى وقومى جليل لأن الأمة التى نزل بلسانها الكتاب الكريم يجب عليها أن تعمل على نشر دينها ونشر لسانها ونشر عاداتها وآدابها بين الأمم الأخرى وهى تدعوها الى ما جاء به نبيها من الهدى ودين الحق لتجعل من هذه الامم الاسلامية أمة واحدة دينها واحد وقبلتها واحدة ولغتها واحدة ومقومات شخصيتها واحدة ولتكون أمة وسطا ويكونوا شهداء على الناس ، فمن أراد أن يدخل فى هذه العصبة الاسلامية فعليه أن يعتقد دينها ويتبع شريعتها ويهتدى بهديها ويتعلم لغتها ويكون فى ذلك كما قال الشافعى رضى الله عنه .

تبعا لا متبوعا : -

ومن ذلك كله نخلص الى أن تعلم اللغة واتقانها والمحافظة عليها ، والدعوة اليها أمور أساسية فى أسس الدعوة الاسلامية ، يجب على كل مسلم وكل داعية إلى الله وعبادته أن يحققها فى نفسه وأن يدعو الناس اليها ويحارب من يحاربها ، ما استطاع الى ذلك سبيلا وأن يعتقد أن ذلك من دعوة القرآن وفروض الاسلام ومنهج علماء الاسلام .

٥) محاربة الشعوبية والاستعمار اللغة العربية :

خاضت العربية صراعات (34) عنيفة فى القرون الأولى للاسلام مع بعض اللغات القديمة ولكنها انتصرت عليها وحلت محلها فى ميادين الدين والأدب والعلم ، وكادت تتعرب الشعوب الاسلامية كلها ، ثم لقيت صعوبات جمة من (الشعوبية) التى تعادى العرب وتحتقر آدابهم ممن لم يتمكن الاسلام فى قلوبهم فى أنحاء من العالم الاسلامى غير العربى ، وفى عصور كثيرة من تاريخها بعد الاسلام منذ قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢ هـ - ٧٤٩ م) . حتى تركت مكانها فى مواطن كثيرة من أرض الاسلام وبين شعوبه ، حتى ان الشاعر العربى المتنبى (ت ٣٥٤ هـ) أحس بغربة اللسان والانتماء والوجود عند مروره بشعب بوان من أرض فارس (إيران) وهو موضع عند شيراز كثير الاشجار والمياه يعد من جنان الدنيا ومنتزهاتها ، فقال :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى — بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها — غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها — سليمان لسار بترجمان

ولكن العربية بقيت لغة الدين وعلماء العربية والاسلام ، يحرصون عليها ويثرون تراثها ويدافعون عنها ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك ، ويتضح ذلك فى قول أبى القاسم محمود الزمخشرى الخوارزمى ، قال فى مقدمة كتابه : (المفصل) : (الله أحمد على أن جعلنى من علماءالعربية وجبلنى على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لى أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز وأنضوى الى لفيف الشعوبية وانحاز ، وعصمنى من مذهبهم الذى لم يجد عليهم الا الرشق بألسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين . (36)

وقد توفى الزمخشرى سنة (٥٣٨ هـ) وهو نموذج حى لموقف العلماء من العربية حتى جاء العصر الحديث الذى تكالبت عليها وعلى كل حياة المسلمين وشئونهم وأرضهم فيه قوى الاستعمار ومبشروه ومستشرقوه وإرسالياته وجامعاته ، فراحت هذه القوى (٢٧) تشكك فى لغة القرآن ، وتحاربها فى كل ميدان وتفترى عليها الأكاذيب وترميها بالنقص والعجز عن التعبير عن الحضارة الحديثة ومصطلحات العلوم وأسماء المخترعات وأوحت الى الناطقين بها بأن لغتهم شديدة الصعوبة بالغة التعقيد عسيرة فى قواعدها وعلومها ، وأنها لغة البداوة ، فاذا ما صلحت لجماعة متبدية فانها لا تصلح لمجتمع متحضر وما دامت البداوة والحضارة نقيضين لا اجتماع بينهما فكذلك لغتاهما ،

وقد غلبت الحضارة وسادت فلا مفر من زوال البداوة وآثارها - فالعربية - كما يقولون بنت البداوة ولا حاجة للمجتمع العصرى المتحضر اليها .

والحرف العربى غير صالح - ايضا - فبعضه يشبه بعضا ويندر من يحسن قراءته من غير أخطاء فيجب أن يستبدل به الحرف اللاتينى - كما حصل فى تركيا مثلا - لأنه أصح وأسلم والاعراب هذا الكابوس المخيف يجب أن يزول أيضا فاذا ما أجزنا وجود العربية فلتكن عامية من غير اعراب حتى لا يتورط القارىء فى لحن يعيبه ، ولأن الشعب لا يعرف الاعراب وهو الكثرة الكثيرة من الناس ويتكلم لغة من غير اعراب ، ووجود أفراد ممتازين يعرفونه تـأكيد لوجـود فوارق الطبقـات التى يجب أن تمحى ، وغالى بعض المستشرقين فى المزاعم والتشكيك فزعم أن الاعراب فى العربية مخترع فيها وليس أصيلا اخترعه علماؤها ليكون لها نظام للنطق وقواعد مثل اللغات الاخرى ، وتمادى بعض آخر منهم فى الزعم والافتراء حتى زعم أن القرآن أنزل غير معرب ثم أعرب بعد ذلك عند ما اخترع الاعراب ، وقد وقف ابناء العروبة المختصون المخلصون لهذه المزاعم الباطلة بالتفنيد والكشف عن بطلانها وسوء نيات مروجيها ، وهى مزاعم باطلة ليس لها سند علمى تنكر الواقع والتاريخ الحضارى لهذه اللغة وما تمتاز به من خصائص وسعة وغنى وقدرة على استيعاب الحياة وشؤونها والحضارة وعلومها ، اذا ما أخلص أهلها لهـا وفطنوا الى أن اللغة الفصحى هى أقوى روابط الوحدةالعربية ، التى هى أعظم آمال الشعوب العربية واستطاعوا أن يتخلصوا من الفكر الاستعمارى الذى استـطاع أن يهيمن على الكثير منهم حتى ظنوا بلغتهم الظنون وصدقوا كثيرا مما قال أعداؤها فيها فانسحبت من كثير من مجالات الحياة ، اذ قد وجد فى العالم العربى من يتبنى هذه المزاعم الكاذبة ويتولى نشرها ويستميت فى الدفاع عنها من صنائع الاستعمار والصليبية الحاقدة على الاسلام والمسلمين الهادفة الى القضاء على اللغة العربية وآدابها وتراثها ، وصولا الى القضاء على الاسلام وقطع المسلمين عن القرآن بالقضاء على لغته ووسيلة تلاوته وفهمه ، أشد ما يزعجهم أن يبقى هذا الكتاب حيا متلوامتداولا بين المسلمين ، وجماهير المسلمين غير العرب تكاد تكون معزولة عنه الآن عزلا تاما لا تعى شيئا ذا بال منه لبعدها عن لغته ، خصوصاالواقعة تحت السيطرة الأجنبية التى ابتلعت كثيرامن البلاد الاسلامية فحرمت على أهلها المسلمين تعلم العربية وكتابها : القرآن الكريم .

وان الجهود الكبيرة التى تبذلها ثورة الفاتح العظيمة فى الدفاع عنها ونشرها وتثبيتها فى الهيئات العالمية لما يجب أن يقابل بالتقدير والتعاون الجاد من قبل الدول الاسلامية ،

ومما يثلج صدور المؤمنين المخلصين لها ، ويقوى أملهم وأمل المسلمين فى كل مكان أن يعود لهذه اللغة مجدها وانتشارها بين المسلمين ، وفى كل أنحاء العالم ، (ولله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الرحيم) . (38)

الهوامش والمراجع :

١ /الآيـة ٣ /يـوسف (٢) الآيـات ـ ١٩٢ ـ ١٩٥ /الشعـراء (٣) الآيتـان ٢٧ ـ٢٨ الزمـر (٤) الآيـة (٣) /الزخرف (٥) الآية ١٠٣ /النحل (٦) الآية ٤٤ /فصلت ، (٧) الرسالة ٤٧ / تحقيق الأستاذ احمد شاكر (٨) الآيتان ٤١ ـ٤٢ فصلت ، (٩) وينظر معجم الفاظ القرآن الكريم (ل س ن) و (ل غ و) ـ اخراج مجمع اللغة العربية المصرى (١٠) وينظر اللغة بين القومية والعالمية ـ ٢٧٦ ـ ٢٧٩ ـللدكتور ابراهيم انيس (١١) ينظر المرجع السابق فى الموضوع نفسه وما بعده ـواللغة السامية ـللمستشرق الالمانى تيودور نولوكه ، ترجمة الدكتور رمضان عبد النواب / ٧٩ ، (١٢) ينظر مثلا (كتاب الزينة فى الكلمات الاسلامية والعربية) ص ٦٠ وما بعدها عنوان (فضل لغة العرب) للشيخ ابى حاتم احمد بن حمدان الرازى المتوفى سنة (٣٢٢هـ) ١٣ /وينظر (اصالة الحضارة العربية) ٢٤٤/ للدكتور ناجى معروف (١٤) الآية ٤ / ابراهيم (١٥) الآية ١٥٨ /الاعراف ـ ١٦ /لسان العرب (عرب) واللغة العربية بين القومية والعالمية ١٨٠ ، (١٧) ينظر كتابى (النحو وكتب التفسير) ١ /٣٨ ـ٣٩ ـ ، ١٨ / ينظر بحثى (اصالة اللغة العربية وعلومها) المنشور فى مجلة (الفكر العربى) العدد ٢٦ /٤ ـ ٣٩ ، وكتاب (الاصول فى النحو) لابى بكر بن السراج ـ ج ١ /٣٧/ طبع النجف الاشرف ، (١٩) الخصائص ١ /٣٤ طبع دار الكتب المصرية ٢٠ و٢١ / دلائل الاعجاز / ٥٦و ٦٤ / الطبعة الأولى تعليق الأستاذ احمد المراغى (٢٢) شرح ديباجة القاموس لنصر الهورينى وفوائده ١ /٢ ـ (٢٣) ينظر مثلا فى كتاب (الصناعتين ـ ٧ ـ ٨ لابى هلال العسكرى تحقيق على البجاوى ـومحمد ابو الفضل ابراهيم و (علوم البلاغة) ٥ ـ ٦ ـللأستاذ احمد المراغى ، و(البلاغة تطور وتاريخ ـ خاصة من ١٦٠ ـ وما بعدها ـللدكتور شوقى ضيف (٢٤) تاويل مشكل القرآن ـ ٢٢ ـ٢٣ تحقيق الأستاذ السيد صقر (٢٥) الآية ٤٤ /للنحل (٢٦) وينظر فى هذا مقدمة ابن خلدون / ـ ٥١٠ ـ ٥١٢ / طبع (كتاب الشعب) القاهرة ، (٢٧) ينظر (الاتقان فى علوم القرآن) ٤ /١٨٥ ـ ١٨٨ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـوكتابى (النحو وكتب التفسير ١/٥٦٩ ـ ٥٧٥ ـ (٢٨) الاتقان ٤/١٨٥ ـ ٢٩ مالك ـ حياته وعصره /٢٦٠ للمرحوم الشيخ محمد ابو زهره ـ (٣٠ ـ٣١) الاتقان ٤/١٧٥ و١٨٦ ـ٣٢ / الرسالة /٤٩ (٣٣) السابق ٤٨ ـ ٤٩ (٣٤) وينظر اللغة بين القومية والعالمية ١٨٠ وما بعدها (٣٥) ديوان المتنبى بشرح عبد الرحمن البرقونى ٤ /٤٨٦ ـ٤٨٧ ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ١ /٥٠٣ ـ ٥٠٥ ـ (٣٦) المفصل بشراح ابن يعيش ١ /٣ ـ٥ (٣٧) وينظر فى هذا الموضوع الكتب التالية :

من حاضر اللغة العربية للأستاذ سعيد الافغانى و (الزحف على لغة القرآن) للأستاذ احمد عبد الغفور عطار ، و (فقه اللغة العربية) للدكتور على عبد الواحد وافى و(تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصر) للدكتور نفوسه زكريا سعيد ، (٣٨ الآية ٤ ـ ٥ /الروم .